Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 294

Transformations of the Tunisian Society Marine Environment

Dr. Adel Belkhla

Abstract

Change in contemporary Arab society can be documented and analyzed by looking at beach culture as an emerging cultural phenomenon. The paper looks at Halq Elwed (la Goulette) beach as it was one of the first beaches in Tunisia. Recreational life at this beach went through profound changes. These started with the advent of Western-European style of beach recreation which ultimately led to the destruction of the traditional Tunisian swimming and swimming culture. After independence it underwent once again through the phase of the American-soft-sand-beach-culture. The Axis (The Avenue of Carthage) that was built by the French durinig occupation became later on known as the Avenue of Roosevelt, as representation of the American vision of reconstruction of the Arab World. The withdrawal of the Western-European colony culture represented a sharp demise for the modernist culture and psychology of Halq Elwed. The second impact affecting the destruction of this modernist culture of Helq Elwed came with the departure of the Jews, as a modernist group, from Tunisia.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 295

في تحوّلات ثقافة البيئة البَحْرية بالمجتمع التّونسي

د. عادل بالكحلة *

الملخص

يمكننا أن نرصد التحولات الثقافية الحديثة بالمجتمع العربي في مرآة الشط، تلك الظاهرة الحديثة.

وقد اتخذنا (حَلْق الواد) مثالا بوصفه أول شط بالمشهد الثقافي التونسي الحديث.

لقد مر هذا الشط بمرحلة الشط الأوروبي- الغربي الصلب تم فيها القضاء على الخصائص الرئيسة في نحلة العوم والاصطياف الأصيلة ومصالحة بعضها الآخر. وبعد «استقلال» البلاد عن المستعمر الفرنسي انخرط الفضاء ضمن الشط الأمريكي اللين حول محور شارع روزفلت فيزيائيا، وحول منظور «شرق أوسطي» أمريكي. بيد أن انشقاق الجالية الأوروبية- الغربية مثل شرخا عميقا في الهوام الحداثي لحَلْق الواد.

وكانت الرضة الثانية المتمثلة في انشقاق أول طائفة حداثية بالبلاد (الطائفة اليهودية) علامة انهيار لوحدة هوام حَلْق الواد الحداثي.

---

* *باحث اجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.*

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 296

العاصمة، هم السّمّاكون، ومعهم الفئات المتماهية بهم، من الطبقات الدنيا والمتصوفة، فلقد كانت الطبقات العليا تعتبر «العَوْم» وغيره من الرياضات من الممارسات الدونية.

فلقد عدم البحّارة السلف المقدس والثروة، فكان من الضروري اعتمادهم على الجسد قبل كل شيء، لتأكيد الذات ولبناء ثقافة خاصة؛ وأوّل وسيلة لذلك في نظرهم هي السباحة. كما احتفظ المتصوفة والعرفانيون بتراث ضخم، غني، يمجّد البحر والماء ويجعلونهما رمزين رئيسين في حركتهم الاحتجاجية. وقد تمازجت الثقافتان البحّارية والتصوفية وتحالفتا طيلة قرون عديدة وخاصة ضمن الطريقة العيساوية، حتى إعلان نهاية القرصنة سنة ١٨١٦ ثم ظهور الجالية البحّارية الإيطالية.

والعوْم، ككل الرياضات والألعاب التقليدية موسميّ، ضمن سلم تصاعدي يبدأ خريفا برياضات وألعاب أقلّ حراكًا وإشراطات دينية، ليبلغ ذروته صيفا مع «سيدي أوسّو»، وهو وليّ/ زمان كائن بين ٢٤ يوليو و ٤ سبتمبر، كما اقتضى التقليد الأمازيغي العريق[٢]. وقد كان العوْم في النصف الأول من هذه الفترة عادة، أي «طْلُوعْ أوْسّو»، أي مرحلة ارتفاع الحرارة، لا في فترة «رْجُوعْ أوِسُّو» أي مرحلة تراجع الحرارة، لكنّ أوِسّو يسكن بقيّة الحوْل.

فهذا الزمان/الولي الذي يترافق مع ارتفاع درجة الحرارة الحولية، يعني ارتفاع درجة التّمثلن البحّاري-العيساوي ذي الحس العملي، إذ يحاول المحتفلون بأوسّو اختصار جسدهم وتكثيفه للانخراط في العروج الروحي، محاولين إرواء ظمئهم الأنطولوجي المتقادم وردم الهوّة التي فصلتهم عن المقدس قرونا بسبب الثقافة المركزية التمييزية، استنادا إلى الحركة الجسدية والذّكر اللاهث والموسيقى ذات الإيقاع الحاد المنتظم الثابت، والنشوة الفورية، والصلوات المتهدجة، في مقامات الأولياء المنتشرة على السواحل، الذين كانوا مرابطين ومجاهدي بحر. ويوجّه هذا النشاط فرق العيساوية القادمين من جمّال أو صفاقس أو سِيدي عامر أو غيرها. ويترافق ذلك مع العوم العائلي والجماعي. فلقد كان العوم عنصرا من تكاملٍ تربوي

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 297

المقدمة :

كتب دافيد لوبروتون قائلاً: «إن الجسد موضوع ملائم بشكل خاص للتحليل الأنثروبولوجي؛ لأنه ينتمي حقا إلى الأرومة التي تحدد هوية الإنسان»[1] فوجود الإنسان هو إلى حدّ كبيرٍ اختيارٌ جسديٌّ داخل فضاءات محدّدة اجتماعيا. من هذه الفضاءات، يَمْثُلُ الفضاء البحري-العَوْمِي، خاصة وهو فضاء يعمره عدد مهم ومتنوع من الناس موسميا.

فهل يمكننا أن نتلمسَ خُطَاطاتٍ لتاريخ الجسد/ والبحر بالبلاد التونسية ؟ وهل يمكن لهذا التاريخ أن يعكس، ولو نسبيا، دينامية المجتمع التونسي الشامل وتكاملاته وتناقضاته؟

في سبيل التأكّد من ذلك، استعملنا مصادر مكتوبة تتمثل في: (كتب تاريخية، وسِيَر ذاتية، ومدوّنة غنائية) تتقاطع مع الموضوع أو تصب فيه، واستخدمنا المقابلات نصف الموجهّة مع شيوخ وكهول وشبان، وإناث وذكور، وذهبنا إلى الميدان العَوْمِي-البحري المعيش راهنا، في بُوغْرَارَة والبلدات المينائيّة بالساحل التونسي، ونابل، وأرخبيل قَرْقَنَة، والمَرْسَى. ثمّ ركّزنا على مثال **حلق الواد والْكْرَمْ**، لأننا اكتشفنا أنه المثال الذي رسم القطيعة الثقافية بين التقليدي والحداثي في ثقافة السباحة البحرية بالبلاد التونسية منذ سنة ١٩٠٨، محاولين تفهّم هذه النقلة واستتباعاتها.

وذلك ضمن الخطة الآتية:

١- خصائص الثقافة العوميّة التونسية الأصيلة.

٢- ميلاد **الشط** في الثقافة السباحية الغربية.

٣- ميلاد **الشط** في الثقافة السباحية التونسية وتحولاتها بحلق الواد والْكْرَمْ.

١- خصائص الثقافة العوميّة التونسية الأصيلة :

كان أكثر الممارسين للعَوْم («الِعُوم») قبل سنة ١٩٠٨، وربّما بعد خارج منطقة

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 298

ويبدأ تعليم العوم، بتلقين الطفل طقسية الدخول، وضرورة عدم ممارستها بعد الأكل، ثم يعلّم الاستلقاء على الماء والاطمئنان إليه دون أن يتسرّب إلى الأنف والفم. ثم يعلّم «التَّوْزِيعْ» وهو تحريك اليدين والساقين للتقدم، ثم كيفيات العوم والغطس.

وأهم أساليب السباحة ثلاثة :

أ- السباحة الظهرية: ويعتبرونها أسهل من غيرها؛ ولذلك تلقّن قبل غيرها. وهو أسلوب ذكوري.

ب- السباحة الجانبية : يكون السابح مستلقيا أفقيا على أحد جانبيه، وتكون يداه ممتدّتين إلى الأمام، واحدة بالأسفل تجذب الماء السفلي، وأما اليد العليا فتتنزل من الفضاء لتغرف الماء وتكون أسرع حركة من الأخرى. وأما حركة الساقين، فتكون مِقَصّية، وتمارس الإناث هذا الأسلوب، ولكنه ليس أفقيا عنهن، بل قطري.

ت- السباحة العمومية: تكون اليد اليمنى أسفل الماء يمينا تجذب الماء. واليد الأخرى ممتدة عكس ذلك تجذب الماء أيضا. وتكون الساقان البعيدتان عن القاع مكونتين شكلاً معيّناً، لتنطلق اليمين في اتجاه اليسار في الوقت نفسه، فيتقدم السابح. وهذا الأسلوب يستعمله الجنسان.

ونلاحظ في الأسلوبين الأولين اختيارا متماهيا بحركة السمكة ذات البعد الرمزي المهم في الثقافة البحّارية، فهي عنوان البركة والحظ والابتعاد عن الأرواح الشريرة. أما في الأسلوب الثالث، فنلاحظ اختيارا متماهيا بحركة النوارس التي تعتبر لدى البحارة بشير أسماك أو نذير أنواء فيتّقونها. ونلاحظ هيمنة الأسلوب الجانبي لأنه العملي أثناء اضطرار البحّار إلى النزول إلى البحر أثناء المصائد، إذ يحمل الشبكة باليمين و«يُوَزَّع» (=يُوَزِّع) باليسار؛ ولأنهم يعتبرونه الأسرع؛ إذ السرعة مفيدة للعمل وللخلاص من الأنواء، كما أنه متماهٍ بأسلوبهم في الرقاد؛ إذ يعتبرون البحر مهدهم ودارهم الكونية.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 298

حوْلي، لا ينفك عن عناصر متزامنة، خادما أهدافا ثقافية-داخلية محدّدة، ولم يكن منفكا عن مجرى الحياة، أو عن اللباس اليومي، أو عن جسد الثقافة الأهلية.

فبهذا العوم يقتلع المحتفلون داءهم الأنطولوجي وأوجاعهم الثقافية والذُّنُوبِيّة والاجتماعية المتراكمة عبر سيرورتهم التاريخية، مثلما يستشفون في اعتقادهم من أمراض الجلد والعظام والتنفس، فقد كانوا ينادون بخشوع وهم يلتحمون ببحر أوِسُّو: «يا بْحَرْ أوِسُّو! نحّي لي الدّا إلّي نْحِسّو!» (انزع عني دائي الذي أحسه !).

السباحة في هذه الثقافة، لا تكون إلا عندما يكون البحر باردا. ويكون ذلك لدى الرجال صباحا، وعند النساء مساء، فقاعدتهم تقول: «عَنْدْ الرْجَالْ: عُومةْ الصْبَاحْ فْلاَحْ، وْعُومةْ الْقْوَابِلْ عْلاَبِلْ، وْعُومةْ الْعْشِيَّة رْزِيَّة»، إذ العوم في الظهيرة يورث العلل الخطيرة ومزعج لراحة الكائنات البحرية آنئذ، ممّا يقلص الثروة السمكية في نظرهم؛ أما عوم الرجال في العشية- وهو زمن مخصص لعوم النساء- فهو نقيصة أخلاقية وتلصصية تتنافى ورجولة البحّار وأمانته، وتتناقض مع تمثلنية موسم أوِسُّو الدينية.

ودخول البحر، ينبغي أن يكون هادئا وبالبسملة. فالزمان مقدّس (أوسّو)، وكذلك المكان؛ إذ البحر «ظْهَرْ ملك»، فهو ملاك طاهر يملأ الماء ورأسه السماء، وهو الأول في الخلق الإلهي وهو الأخير عند نهاية الكون، وهو «النعمة الهيّنة للفقراء عندما يعدمون كل شيء»، كما يؤكدون في مقابلاتهم. وربّما خصّصت بعض الأماكن من الشطوط عائليا؛ نظرا لأنّ مزارعها العريضة كانت أمامها، وربما كان بعضها مستعملا أكثر من غيرها؛ لأنها أكثر عمقا ضمن بحيرة شاطئية. ولكن في أكثر الأحيان، يكون مجال العوم حول مقام ولي، أو غير بعيد عنه إذا كان عائليّا. ففي نابل، بالشمال الشرقي، مثلا، تعوم النساء عشية أو بُعيد الفجر عند «سِيدِي سْلِيمَانْ»، بعد زيارته، أما الرجال فيعومون عند «سِيدِي المَحْرْسِي» البعيد عن المقام الآخر قرابة ٢ من الكيلومترات.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 300

٢- ابتكار الشط:

طيلة قرون، اعتُبر البحرُ لدى الأوروبيين-الغربيين[٤] «الوعاء السحيق لبقايا الطوفان»، موضوعا للنفور ومصدرا للجزع. فالشط الجغرافي، بهذا المخيال، يُطْرِد ويخيف.

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، بدأت نظرة مختلفة -جذريا- عن الطبيعة والجسد في التكون بأوروبا الغربية. وببطء بدأت، تلك النظرة، تتجه نحو الضفة البحرية، وتُحوّل التمثل الاجتماعي عن الأماكن. فقد أصبح البحر معبر العظمة الإمبريالية التي لا تغرب عنها الشمس، باعتبار أن الإنكليز المستعمرين «اليهود الجدد» يَعْبُرون اليَمّ، حسب صريح المِلَّة (=الإيديولوجيا) الاستعمارية البريطانية منذ النشأة[٥].

البداية كانت بإنكلترا. فبعد أن كان البحر لدى الإنكليز مصدر شر ووهن، اتُّخِذَ منظرا طبيعيا في نهاية القرن الثامن عشر. ثم اتخذ مجالا للفضائل العلاجية لدى الاستقراطية، بفضل التجديد في المعرفة الطبية، فأصبح فضاء علاجٍ امتيازي-ارستقراطي. لكنْ مع رفض الشط، إذ بنت هذه الطبقة فنادق على السواحل تتلقى ماء البحر في مغاطس.

ظهرت الطبقة المتوسطة الحضرية بإنكلترا بفضل عائدات التوسع الاستعماري، متميزةً بمدخول معتبر ووقت مخصّص للترفيه، وتساوق ذلك مع تحسن المواصلات وتسهّلها خاصة بظهور سكك الحديد. وضمن هذا السياق ابتكرت هذه الطبقة ثقافة الشط، مدشنة تنقل الجماهير نحو السواحل هاربة من المدن الداخلية، مراكز التحضر والسلطة اتّباعيا منذ قرون، وقد أفرز ذلك تبلور «المدينة الاستحمامية». فالشط هو الذي ولد هذه المدينة، وأصبح من ثمة تعلّة **للاجتماعية** الصيفية، ذات الأشكال الجديدة من الترفيه والتشارك في الأكل والشرب، وأعطى تجمعا سُوقيا ذا مركز محوري على مقربة من البحر[٦]. وبذلك انتقل البحر الأوروبي-الغربي من السّجل العلاجي إلى السجل اللَّعِبي. وكان المنطلق البورجوازي-الإنكليزي بداية

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 301

أما الغطسة، فهي آخر ما يُتعلّم، ويوصي الكبارُ الصغَارَ بعدم الغطس الذي يسبق الرأس أو البطن. وتتميّز بتسبيق اليدين ممتدتين، وتكون ركبة كل ساق مثنية قليلا. ولكن بالقدم اليمنى لا نجد إلا الأصابع مثبتة. ثم ينثني الجسد باتجاه الماء، مع المحافظة على توازي الذراعين، بحيث يكون الرأس بينهما، ويرتمي مع ثني الربلتين نحو الفخذين قليلا.

وفي كل تلك الأساليب تفرّدات ثقافيّة تتميز من ثقافة عومٍ أخرى في العالم.

وتنظم بين السابحين مسابقات في السرعة أو البقاء تحت الماء دون تنفس دون حراك أو مع العوم. وقد كان بعضهم من الغوّاصين لاستخراج الإسفنج، أو لاستخراج بقايا قنابل الحرب الإمبريالية الثانية التي لم تنفجر، أو بقايا السفن العسكرية الغارقة والتي تصلح لهم. وقد استجلبوا تلك المفرقعات؛ لاستعمالها في حركة يناير ١٩٥٢ ضد المحتل الفرنسي.

إن هذه السباحة ليست استعراضية؛ إذ هي ملتصقة بالحياة والمهنة والمقدس والأسرة. وليست تفاخرية أو تدميرية تجاه الآخر، أو استعلائية مثل الرياضات التنافسية-البطولية. ولذتها ليست لذة مستقلة، كلذة السباحة الغربية الحديثة، بل هي جزء ضروري من كلية ثقافية متكاملة العناصر. وهي ليست زينة، أو إضافة، أو فرجة، أو مجالا تلصصيا. ولا نجد فيه تقليد «الشَّط»، أو «حمام الشمس» أو «التسمير». وهي ليست فردية، بل لا يمكن أن تكون إلا جماعية، ضمن الاحتفال العيساوي وضمن العائلة.

وهي ليست منفصلة عن الحياة الجارية بلباس خاص. فالرجُل يرتدي سروالا قديما مستعملا، وإذا لم يجد يرتدي «كَدْرونًا» أو «بْلُوزَهَ مْدوّرَة»، أو يتحزّم برداء أو إزار، وينبغي أن يكون ملوّنا «لأن للأبيض شفافية عند الابتلال بالماء»، كما أكدوا في مقابلاتنا. وهذا الحرص على التستر، هو مع الإناث أكثر إذ يعُمّن بملاءة قديمة. وقد كانت السباحة عنصرا رمزيّا في إنتاج الفتوة البحّارية التي كان لها دور كبير في حركة مقاومة الاستعمار الفرنسي بالسواحل[٢].

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 302

٣- ظهور الشط اللّيّن : الشط الأمريكي:

الشط الغربي الأول، هو اختيار أوروبا الإمبريالية-البورجوازية المنتصرة الصراعية، أما الشط الثاني فهو اختيار البورجوازية الأمريكية، البعيدة نسبيا عن صراع الإمبرياليات المتراخية المزهوّة بتفوقها المعاشي (=الاقتصادي) ثم العسكري، «المنقذة» لأوروبا الغربية من الطوق الألماني-الهتلري. هذا الشط اللين والمطواع، لم يهيمن على أوروبا الغربية إلا منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين. كانت ثقافة «المنقِذ» الأمريكي، تغزو المؤسسات الصناعية وأنماط التفكير ومدارس العلوم الانسانية والإنتاج الموسيقي والتشكيلي والسينمائي. وديناميات الجسد، بوصفها نحلة غالب يتمثلها «المغلوب» «المنقَذ» لتشمل أيضا تحويل الشط الأوروبي-الغربي.

والشط الجديد، هو شط الرمل المَحلُوم به، فاكًّا سحر الأمكنة، رمل حارّ وليّن، من أجل جسد متراخ يجرّب الجمود الضروري للإدراك الحسي.

ولا يعني ذلك انقراض المرجعية الأولى، بل بقيت تمرينها على الشطوط، سباحةً وألعابَ «راحات»[٩] وكرات. ولكنه أصبح تمرينا أقلّويّا جدا مقارنة بالاتجاه المعاكس أي الفتور الساكن للجسد المستوعب للأحاسيس[١٠].

بيْدَ أنه، ينبغي انتظار الابتكار الاجتماعي للتشمّس والتسمير حتى يهيمن الرمل اللين نهائيا على الرمل الصلب.

٤- حلق الواد : بقايا ماض :

حلق الواد قرية ضاحوية قديمة، من ضواحي مدينة قرطاج[١١]. كانت تجمع عددا صغيرا من البحّارة، كانوا يمونون حاجة قرطاج البونية ثم الرومانية، ثم حاجة مدينة تونس العربية-الإسلامية، من السمك. وكثيرا ما كانت هذه القرية ملاذا للعرفانيين والمتصوفة. فمحيي الدين بن عربي نفسه، أقام فيها مدّة. ولما

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 303

تحول ثقافي عالمي في المخيال السباحي متساوقًا مع الإمبريالية العسكرية والمعاشية (=الاقتصادية).

لقد انطلق التحول من إنكلترا الفكتورية، حيث يخضع الجسد البروتستانتي للمحظورات العظمى. فكان من الضروري أن تعلن البورجوازية تمردها الثقافي، ومن عناصره العَوْمُ مَعًا، أي بين العموم، مع ضمان خصوصية الجسد وحميميته، متعلقا بالخاص. ففي غضون هذا الطور من نمو الثقافة الرأسمالية كان الخاص والعام منفصلين. وفي القرن التاسع عشر، قرن الآلة بامتياز، كانت تَآلِيَةُ الشط أيضا، فكان اختراع «آلة الاستحمام» وهي عربة نقالة مجرورة بالبقر، تدخل البحر وتوفر الاستحمام في حميمية منزلية، ثم تعود للشط حيث طائفة المستحمين لابسون ثيابهم العادية.

كانت صورة الشط هي نفسها صورة البورجوازية الأوروبية-الغربية عن الطبيعة، «مجالَ فراغ» دون ضغوط معيارية، خالقةً وَهْمَ «الرُّوبَنْسُونيّة» وعزلة الجسد في مواجهة الآخرين. وبنقطة الالتقاء المثالية هذه، بين الجسد والبحر والرمل والريح والشمس والفراغ، تتبلور خصوصية الفضاء و«سحر الأمكنة»، بإثارة رغبة الضفة البحرية.[٧]

وقد كانت مرجعية الشط الأوروبي-الغربي الأولى مرجعية البِحَار الباردة والرمل الصلب والجسد القوي.

إذن، كان الشط أحد التعابير الثقافية للرأسمالية المنتصرة في القرن التاسع عشر. ففي إنكلترا، قلب الرأسمالية، نشأ الشط، على بحر الشمال. ثم انتشر لدى بورجوازية فرنسا وإيطاليا، بسواحل البحر الأبيض المتوسط[٨] الشمالية، لتنتشر في ما بعد على سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية المحتلَّة، بمستعمرات إنكلترا (مصر...) وفرنسا (البلاد الجزائرية، البلاد التونسية...)...

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 304

سعدون»، وذي الخدم الكثيرين، الذين إحداهم سوداء مُخْتَطَفة من بورنيو[١٨].

لقد كتبت بنت المنطقة جَاكْلِين بِزْمُوتْ اليهودية عن الكازينو: «كازينو حلق الواد هو موعد العالم جميعا. لا شيء يسلّيني أكثر من تأمّل الشارع في هذا الموسم، وأن أغطس في هذا الجوّ الذي لا نجده خارج هذا المكان أبدا (...) استقررت في أحد هذه الكراسي الطويلة النادرة التي مازالت بعد شاغرة (...) وبداية من الخامسة مساء، يستطيع المرء دائما أن يشبّك نفسه لكي يجد أين يضع ردفيه على هذا الرصيف (...) لاحظتُ منذ الأمس، أنّهم أداروا اللافتة المعلّقة على سلسلة قديمة دُهنت زرقاء بإبهام عند زاوية هذا الهيكل الأبيض الكبير: «غرف للكراء»، لتغيّر بـ : «مكتمل» (...) نادل ذو قميص مبقّع متصبّب عرقا، ينحني عليّ واهبا إيّاي تكرّما قطرات عابرة مقرفة ويقول: «للاّ[١٩] ماذا أناولك: فنطا أم بوقاسيدر أم شايا أم قهوة؟» (...)[٢٠]

ومن أجل هذه التعبئة الثقافية أيضا، كان آنئذ صالون الكُونْتِيسَة رَفُّو، ابنة السِّير الإنكليزي ريتشارد وُود، وزوجها الإيطالي ذي «الوظائف العالية لدى الباي». ويحضر الصالون موظفو الباي والأعيان وكبار المترفين، من التونسيين، مع قناصل الدول الغربية، للأكل والشراب والرقص الأوروبي المعاصر[٢١] والتحادث بالفرنسية. وبذلك كان الصالون فضاء تذوب فيه الثقافة لتتعولم فيه الثقافة الفرنسية. وقد كان منزل الزوجين على شط خير الدين، بضاحية حلق الواد.

وللتعبئة التحديثية للطبقات الدنيا نحو ثقافة الشط، كان الانتشار المتسارع للحانات والمواخير بمنطقة حلق الواد منذ سنة ١٩٠٨ باعتبار رخص خدماتها النسبي بالمقارنة مع أسعار خدمات الكازينوات المقتصرة على الطبقات القادرة من أجانب وتونسيين. ولكنّ ملاصقة حانة «بِيسْتْرُو»[٢٢] أو «بار كيندي» لمسجد وليّ حلق الواد «سِيدِي الشّرِيف» أثارت حنق بعض الأهالي.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 305

كان مستلقيا على سفينة ذات ليلة قمراء تجلى له الخضر، نبي المتصوفة، ليدعوه إلى الهجرة إلى مكة.[١٢]

لقد كان العرب المسلمون وحدهم بالمنطقة أصبحوا أقليّة ديمغرافية بعد تدفّق الإيطاليين بدعم من الباي أواسط القرن التاسع عشر، قبل تدفّق الفرنسيين. وأصبحنا نقف على ثقافة بحر خليطة، جمعت عناصر من ثقافة البحر التقليدية الأصيلة ومن ثقافة الشط الغربية المعولمة، جامعا بين القدسية والمنفعية. وقد ساهم افتتاح الخط الحديدي الكهربائي «التِّي جِي آمْ»[١٣] عام ١٩٠٨[١٤] في تدفق سكان العاصمة على شط حلق الواد صيفا...

وإذا كان «ينبغي على التّرك والإسبان والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم أن يقضوا على حلق الواد للاستيلاء على مدينة تونس»[١٥] عسكريّا، فالأمر نفسه كان على مستوى الاستيلاء الثقافي على البلاد التونسية كلها، وكذلك على مستوى تغيير الثقافة السباحية وصورة البحر وعالم الاصطياف.فالترفيه الشطي بتونس ليس مستجدا وإنما حديث، و «المخيال الشطي هو جزء من نمو الاستهلاكية» ضمن ثقافة غربية منتصرة، تماما كالحالة المصرية[١٦]

ومن أجل التعبئة الثقافية التحديثية للسكان المترفين الأصليين نحو تقليد الشط، فتح كَازِينُو جديد عند افتتاح الخط الحديدي الكهربائي، بعد حلق الواد الجْديدْ، على يد برْنَارْ وسُرْنَاكْ، لتدشين موسم الأوبيراتات والكوميديات والمنوَّعات. وهناك تمجّدت «الجميلة سِرَّانا المغنّية الرّقَّاصة الإسبانية التي أدارت الرؤوس جيدا، وكانت النساء الحوامل يأتين لتأملها حتى يكون الأطفال الذين يحملنهم مشابهين لها...»[١٧]

والكازينو قريب من دار الكونت هولن «المنحدر المباشر من جنرال الإمبراطورية»؛ ودار الهادي الجيلاني «الرجل القارئ المزدوج اللغة، وباعث الحرف التقليدية التونسية، والمنشئ أوَّلَ ورشة لصناعة الجلد المحلي والخزف الفني بنهج باب

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 306

البحر، كان مسموحا بتهديمها... ولكن لبناء صومعة للمسجد، كان الأمر يبدو مستحيلا! ولإغلاق حانة معفّنة كان الأمر مستحيلا أيضا! آه، هؤلاء الناس الذين يقتلون روح المدينة ولا يدافعون كثيرا عن شرفها!...» (...) «زلق الإمام نظرة جافة، ماكرة، من تحت زوجي النظارة، وهزّ رأسه بوقار وأجاب بصوت كالإعصار: «ما كنتَ تقوله خطير، بل خطير جدّا ! أنتَ تَهْجُرُ أم ماذا ؟... هل تجرؤ على نقد اختيارات السلطات ؟ أنت تخاطر بأمر عظيم !». (قال العم محمود حانقا): «(...) أصحاب القرار فعلوا ما يريدون فعله، وقد يندمون يوما! ولكنني أردت أن أقول فقط، باعتبارك صديقهم، وربّما مستشارهم، لماذا لا تقترح عليهم غلق خمّارة تفوح منها الخمر مجاورة لمسجدنا؟». (قال الإمام): «لماذا الخمّارة ؟ (...) ولكنّك أخطأت العنوان ! هذا ليس من شأني (...) ومن ناحية ثانية، لي عدّة مشاغل أخرى. وإلى هنا، ما أعرفه أنّني إمام مسجد ولست إمام حانة! (...) لست الوالي ولا رئيس البلدية لأقرّر! لا تجعل من نفسك صلاح الدين الأيوبي جديدا (...)». (ولكنّ العم (محمود) يواصل اعتراضه قائلا لمستمعيه): «إمام باع روحه للشيطان (...) سأواصل الاحتجاج والانتقاد حتّى يتغيّر هذا. فللإمام مَدَاخِلُه لدوائر أصحاب القرار ويمكنه التحرّك (...) ولكنّه لا يفكّر إلاّ في مستقبله السياسي، فهو يطمح إلى منصب وال (...) ناسيا أنّ العالم ليس له إلاّ (والٍ واحد)... نعم، فلا والي إلاّ الله» (لكن الإمام الذي (تصله) هذه «الغيبة» يضبط نفسه أمام من يصفه بـ) «عجوز ليس من هذا العصر، وصلاح دين سلاطة» (...)».[٢٥]

وبالكازينوات والبَارَات (=الحانات)، كان الامتزاج الرمزي بين هذه الطوائف والقوميات المتعددة، فظهرت أسطورة أن مختلف السكان كانوا في نهاية القرن التاسع عشر يُشربون رُضَّعَهم حليبا خليطا من «مرضعات أجنبيات مختلفات، معتقدين أن «أخوة الحليب» هذه تستطيع أن تخلق، في بداية هذا النوع من القرابة، احترام الأطفال الآخرين ومحبتهم».[٢٦] فكوّنت في الجميع «روحا جمعية» تنزع إلى

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 307

كتب ابن المنطقة نور الدين الجيلاني عن عام ١٩٦٧[٢٣]: «الحانة تدعى أيضا «بار كيندي»، لأنّ بورتريهاً كبيرا للرئيس كيندي معلّق بمدخلها، تبعث أحيانا موسيقى صاخبة تخنق صوت المؤذّن، وتترك رائحة المُحَمَّضَاتْ من خمر ومقليّات تحطّم أريج فيض صمغ جاوة من المسجد. العم محمود، الذي كان معاديا بشراسة لهذا التساكن بين المسجد والبار (...) لكنّ الإمام كان يرى دائما أنّ هذا الحقد المسلّط على كلّ الذين يرتادون البار هو في نهاية الأمر غير مبرّر: «ينبغي أن نكون متسامحين وعقلاء. إنّ النميمة والرياء هما الشرّان اللذان ينخران الإيمان حتما. سنواصل الصلاة بكلّ هدوء حتّى وإن حُوِّل صحن المسجد إلى حانة» (...) ذهب العم محمود هذا المساء إلى مسجد سِيدِي الشّرِيف (...) بعد بضع دقائق من الصلاة، غادر العم محمود المسجد متمتما بآيات من القرآن. ألقى نظرة عابرة، ولكنها فظة، على حانة، وزفر زفرة طويلة. تساءل عابسا: «هذه الحانة الملعونة مصدر إزعاج لجميع الذين تبنّوا طريق الله. فمتى تغلق أبوابها إلى الأبد ؟ متى يا إلهي؟».. توقّف فجأة، تراجع ووقف من جديد مقرّرا أن يدفع إمام المسجد وأن يضغط عليه من أجل أن يتدخّل لدى من يعنيه الأمر حتّى يُغلق «وكر الصعاليك هذا» دون تأجيل. مرّت بضع دقائق، ليظهر الإمام في لباس أسمر فاتح سيّء التفصيل، على عتبة باب العربات بالمسجد. دنا العم محمود منه، وهو يكظم تنهّداته التي تكاد تفجّر بطنه واضعا أصابعه على حُقّيه: «هل رأيت هذه الثقبة؟ أن تكون هنا، قريبة جدّا من المسجد، هو هجوم حقيقي على الله ومؤمنيه! السماكون والبحارة المالطيون والإيطاليون واليهود والعرب يزدردون السائل الدنيء ولا يحترمون قطّ مكان عبادتنا! باعتبارك إماما، كان عليك أن تتحرّك لكي تضمحلّ هذه الحانة وهؤلاء (السكّيرين)! لكن لا شيء من ذلك حدث! يا للغرابة! لكي تضمحل القناة القديمة الواصلة البحر بالبحيرة كان الأمر ممكنا، -ورغم أنّ هذه القناة ذات ألف سنة- كان جميلا جدّا ورائعا جدّا ! و«لاَجُوتِيه»[٢٤] الأكثر أصالة في مطاعم حلق الواد والتي كانت متقدّمة بشموخ داخل

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 308

أصبحتا رمزين للترف والديار الفخمة لدى «عشرات الأجيال» التي «تقاطرت» على سينما راكس. وقد أثر الخطاب السينمائي المصري عن الشط في بلورة المخيال الشطي بالمنطقة(٣٧).

وهنا، نقف على أن «شَطّ حَلّقْ الوَاد» لا يمكن تفهمه إلا ضمن هذه المُرْفولوجيا المتكاملة العناصر، من ماء وضفة وكازينوات وبارات ودور سينما ومواخير، تندرج ضمن حداثة نحليّة منتصرة استغلّت التفوّق الديمغرافي الأوروبي-الغربي لإيجاد شعور بالانسحاق لدى أهل الضاحية عمّق الإحساس المتعاظم بالهزيمة أمام الإمبريالية الغربية.

٥- ذاكرة حلق الواد التلصّصيّة:

لقد أثّرت العرائيّة النسبيّة للمصطافين الفرنسيين والإيطاليين بحلق الواد في كثير من المحرومين من الطبقات السفلى والنازحين منذ بداية القرن العشرين. وقد انعكس ذلك في غنائهم منذ العشرينات على الأقل :

هيّوا هيّوا لبنات	**ما تلوموا عليّ**
حرقت قلبي	**ومشات بالفنطزيّة**
خيار القعدة في الشط	**بشاكر وافط**
موجة تقلب وتحط	**وليّد وبنيّة**

فالشاعر النازح يعتذر لبنات قبيلته من تغيّر اتّجاه عاطفته، فأصبح لا يميل إليهنّ بل إلى جسد الإيطالية أو الفرنسية التي تتسمّر على الشطّ. وبهذه التلصصيّة يريد رجال الطبقات السفلى أن يعوّضوا عن هزيمتهم الريفيّة (إعدام الدغباجي سنة ١٩٢٤) أمام الدولة الحسينيّة والاستعمار الفرنسي وكذلك عن هزيمتها الحضريّة (قمع انتفاضة الجلاّز ١٩١١)، وذلك بالاستغلال الجسدي للإناث المهمّشات في الفضاء الحضري، وبتملّي الفتيات الأوروبيّات الغربيّات.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 309

«فرحة الحياة»[٢٧] ومغرمة بـ«الليبرالية، كما بالاستقلال» الفرداني[٢٨]، كما لاحظ دَرْمُون. وقد عمّقت نحلة الاصطياف الغربية هذا الهوام بهذه المدينة، إذ «كلّ الناس يتّخذون مكانا فيها، حتّى يكون فصل الصيف فصل فرحة الحياة كالعادة. لا يهمّ الدين! مسلمون ويهود ومسيحيّون أحبّوا حلق الواد دائما، ومازالوا متعلقين بالحياة معا»، إلى حدّ تكوّن هوام «الصفاء والانسجام الكاملين»، كما كتب ابن المنطقة نور الدين الجيلاني[٢٩]. ولذلك كان من السهل قضاء السلطات الاستعمارية على المنظمة الشيوعية الإيطالية «دُوبُو لافورُو»[٣٠]. ولذلك كانت الحركة الوطنية بالمنطقة ضعيفة جدا، ولم يعرف الأهليون مصادمات مع الاستعمار، كما حدث في المدينة العتيقة ورادس وحمام الأنف.

لكن حتى بداية القرن العشرين، لم يكن شط حلق الواد «مخصصا حصرا للنسل البشري». فنحو العاشرة صباحا كان بإمكان المالطي والعربي أن يسوق دوابه نحو الماء[٣١]. وكان لباس العوم آنئذ محتشما، «وكان الرجال يتمنطقون بفوطة»[٣٢] وكانت «الطّارِمَة» ميزة للأكثر غنى وتدعى «بِيتْ الْبْحَرْ» وهي بناء مستدير يسمح «بالنزول مباشرة في الماء بباب قلاّب ومزلاج. وأهم المنشآت كانت: «بِيتْ الْبْحَرْ الْكْبِيرَة»، و«حمّامات نِقْرِتُّو»، المجعولة للعائلات، و «شِي لامَارْ هَنَّا»[٣٣] المخصصة للنساء فحسب. وكانت أخلاقية صارمة تسود في كل مكان»[٣٤].

وإحدى «بِيُوتْ الْبْحَرْ» هذه، كانت على ملك «دَايْدَا» اليهودي، وكانت ذات «ركح مسرحي بدائي، أين تحت إدارة ميشال سْتْرِينُو، مع خمسة عازفين وستة مغنين، قُدِّمت جيدا أعمالٌ رائعة من الأوبرا الإيطالية»[٣٥].

كما وقع تركيز دور سينما على طول شريط الضاحية في العهد الاستعماري، وأهمّها «راكس»[٣٦] في وسط حلق الواد أو «مركز العالم» بتعبير جَاكْلِين بِزْمُوتْ التي تذكر في روايتها المذكورة آنفا أنّ سينما راكس كانت تعرض أفلاما هندية ومصرية ووستارن وغيرها. وتذكر أنّ الممثلتين سامية جمال (الرقّاصة) وجاكلين صاصار

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 310

وعن طريق شط حلق الواد كانت بعض أولى الزواجات التونسية من أجنبيات في القرن العشرين، فهو فضاء تعارف بين الجنسين في الثقافة الغربية الحديثة.

كتب نور الدين الجيلاني في «شهادته المعيشة» عن عام ١٩٦٧: «(...) وفجأة، وعلى بعد مترين من الصخرة الصغيرة، مرّ وجه ذو سحنة مخمليّة وفتنة تقطع الأنفاس، متموّجا بكامله، أمام عينيه الصنّاريّتين. تابع ناصر هذه الرشيقة ذات المشية الزورقيّة، التي كانت باتجاه واقية من الشمس، ثمّ استلقت على فوطة رمادية مثل ترغلّة، مبقّعة بأصفر قشديّ؛ وكانت ذراعاه مهتزّتين وفمه مفتوحا (...) ناصر كأنّه مسحور، لا يكفّ نظره إلى هذه الرشيقة النشيطة التي في ظرف بضع دقائق تغادر الشطّ لابسة فستانا قصيرا معقودا من رقبته ومزرّرا من ظهره، متبوعة بسمراء ذات عشرين سنة، من المحتمل أن تكون خادمتها. كانت نظراته خجولا وساذجة أحيانا، وغلميّة أحيانا أخرى (...) بحث ناصر (المسلم) أياما وأياما عن الفتاة (اليهودية) صاحبة النظرات ذات المخمل الأسود والبطن السخيّ... وتوصّل أخيرا إلى اكتشاف اسمها: جُوال! (...) (بعد بضعة أيّام) (...) خرجت جوال من بيتها، شعرها في الهواء، نظّارة الشمس على عينيها وكيس من كتّان بيدها. ناصر الذي ينتظرها بجانب البيعة، حدّق فيها بعينيه المستديرتين البرّاقتين، وابتسامة مشعّة تغمر وجهه. ودون أن يبطئ في تملّي جوال أكثر وهي تنطلق نحو حمّام شمسها الطقسيّ، خيّر أن يسبقها إلى الشطّ... أخذ بيده زوجي حذائه ذوي السيور المكسّرة، واخترق شارع روزفلت جريا، واتّخذ نهجا صغيرا أدّى به مباشرة ومن جديد إلى الشطّ. من بعيد ميّز الرشيقة (...) سيرى عن قرب شمسها التي تسخّن قلبه وتأخذه نحو عالم كامل من الجمال واللذّة (...) قدمت أخيرا. بسطت بعناية فوطة بيضاء (...) على الرمل الذي أصبح حارقا أكثر فأكثر. خلعت فستانها الوصّاف الشفّاف وذهبت لملاقاة الموجات الصغيرة (...) كان عاجزا عن الانفكاك عن نظره المتأثّر نحو جوال التي يبدو أنّها فضّلت نضح الذراعين والرجلين على الغطس. ومثل

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 311

أمّا المطرب اليهودي «الشيخ العفريت» (١٨٩٧-١٩٣٨) فيغنّي :

إنت سكنت قدا الشّط — خلّيت ناري لهيبة
عزّك في كبدتي حط — ودموع عيني سكيبة
يا لحقش الخال فرّاط — يا طم هاذي الغريبة!

❖❖❖❖

يا سمرا يا خمّوريّة — يا للّت الملاح
على خدّك وردة تركيّة — على سدرك تفّاح
إيذا نحوزك ع الصّبحيّة — نربح بين النّاس

❖❖❖❖

يا ضوّاية العين — يا سعد العازب إلّي شافك
نارو في الكنين — في الدّنيا ما فمّ خلافك
مثلك ما فمّاش

إنّنا نلاحظ هنا تشييئا للمرأة، فهي «تفّاح» أي مأكول، وذلك يعني علاقة قضم وعدوانيّة تعويضا عن الهزيمة الذكوريّة سياسيّا ومعاشيا وتعويضا عن فقدان المكانة الاجتماعية. فالسباحة الحديثة باستعرائيّتها («على سدرك تفّاح») تقوّي نزعة العدوانيّة الذكوريّة ورغبة التملّك للأنثى بوصفها سبيّة مغتصبة : «نحوزك»، بطريقة لصوصيّة فجرا: «ع الصبحيّة»، وذلك من أجل تعويض فقدان الملكيّة القبليّة التي منحت للمعمّرين الفرنسيين والإيطاليين وفقدان الشغل؛ إذ تصبح المرأة سلعة تربح في السوق الاجتماعية في زمن الخسارة الطبقيّة والوطنيّة والليل الاستعماري: «نربح بين النّاس».

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 312

الضاحية الشمالية للعاصمة التونسية واختلاقها لصورة نساء حداثيّات بفضل الاصطياف الغربي على شط أمريكيّ ليّن، مكنّيا إياهنّ بـ«الغزلان» المتهتكات لا يخفن تحدّي ثقافة الحياء الأصلانية، إذ لم يعدن سمراوات بل أصبحن «بيضاوات» أي كالأوروبيات-الغربيات ثقافيّا :

تـــونس أيـــا خضـــرا ... يـــا حارقـــة الأكبـــاد
غـزلانـــك الــــبيضــا ... تصـــعب عـــلـــى الصـــيـاد
غـزلانـــك في المرســـى ... ولاّ فـي حـــلـق الــــواد
عـــلـــى الشـــطوط تـــعـوم ... مـا تــخــاف صـيـــد المـــي

٦- التحولات الكبرى في شط حلق الواد والكرم من ستينيات القرن العشرين إلى تسعيناته:

يكتب نور الدين الجيلاني: «كان الشط قد غصّ بعد، والقطارات تواصل دون انقطاع سوق الجماهير الغفيرة والخليطة حتى حلق الواد. رجال ونساء وأطفال يحملون الواقيات من الشمس والقفاف والكرات وشمّاما وبطيخا أحمر من الحجم الكبير... يتوجهون على جناح السرعة نحو الشط، ملامحهم مبتهجة ومفتونة»[٤٢]. إنّها «مدينة لا تنام أبدا زمن الصيف، الكل يتغيّر والكل يتحرّك، الكل يستنشق ويتنفّس»[٤٣]، حتى غدت حلق الواد هوامياً رمزا وحيدا للنسيم ولكن للقفر والفراغ والخواء في الآن نفسه، إذ نجد في المأثور: «النّسْمَة وْحَلْقْ الوَادْ».

إنّ السلوك الاصطيافي في الضاحية الشمالية يكتسب طابعا خصوصيا يُستمدّ أساسا من طبيعة المضمون الثقافي «للشط»، هذا الفضاء الذي لا يقف عند كونه مكانا لممارسة السباحة بما هي نشاط جسدي موسمي، بل هو شامل لثقافة اصطياف حديثة معقّدة العناصر.

ولدراسة ذلك، اتّصلنا بسكّان عريقين بالمنطقة.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 313

حورية، مرّت على بعد بضعة أمتار من ناصر الذي فتح منخريه ليستنشق مليّا بلذّة رائحة عطر زكيّة (...) مايوهها الساتاني الأصفر ذو التخديدات الناعمة الزرقاء، منحتها هي أيضا روعة أكثر. أحسّت أنّ غلافها يزول بالنظرات الثاقبة التي تتابعها فتعرّيها وتفترسها. لكن باعتبار وعيها بمفاتنها وتأثيراتها، انتهت إلى التعوّد على كلّ هذه النظرات المعجبة والتصالح معها. فمن الممكن أن تزعجها، ولكنها تفتنها أحيانا أخرى». وقد أعجب ناصر بسباحتها، على عكس ضحكه على سباحة جميلة المسلمة التي «تتخبّط». ولكنّ جميلة تساعده على التقرّب من جوال فيدخل بيتها معها في عيد ميلادها. ويصف الجيلاني مشهدا آخر من حمّام شمس جوال، فيقول: «غطّت جوال ساقيها وذراعيها بمرهم شمس أمدّها بإحساس شهوانيّ بالنضارة. نشّفت يديها، ثمّ فكّت سدّادة قارورة ترمس حمراء، لترتوي. فشعر ناصر بقلق لا يوصف...»[٣٧].

كما اكتشف الأهليّون طقسيات حداثية أخرى مثل عيد الميلاد تمتّن العلاقات الحداثية بين الجنسين، وقد ساهم الاصطياف الحداثي في اكتشافه. يروي نور الدين الجيلاني خبر عيد ميلاد جوال اليهودية الذي حضره محبّها المسلم ناصر. وقد ترافق مع مظاهر تلصصيّة: «فجأة، ظهرت جوال في بيكيني أسود. وضعت بيك-آب[٣٨] على إسكملة، ثمّ غابت لتظهر بسرعة مع أسطوانة كبيرة بيدها وضعتها بلطف على الالكتروفون[٣٩] (...) تفجّر صوت أزنافور وتفرّق في الحديقة العطرة النيّرة. وجوال، بوجهها الفاتن وكتفيها الفخورين والبطن السمين والضحكة البلورية، بدأت ترقص. وكانت نظرة ناصر ملتهبة (...) الماء يجري وأنريكو ماسياس[٤٠] يهدل. وجوال، شهية كأنها رمل المَنَاقِع، تتلوّى، تهزّ ساعديها وتمدّ ساقيها... شعر ناصر، الذي كانت نظراته متعلقة بها، لأوّل مرّة برغبة حارقة في جس جسدها وفي تقبيل يديها بشغف، وفي ملامسة جلدها الناعم، الصقيل، اللامع، الحار حرارة الشمس، بنهم»[٤١].

لقد مجّد المغنّي فريد الأطرش في مقطع من أغنية بساط الريح تلصصيّة

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 314

ويطاف بها في حلق الواد محاطة بالشموع. وتاريخ خروجها مؤشّر لنهاية موسم العَوْم. وهذا الخروج يجعل البحر «يَتْقلَبْ ويكْحَالْ». ومن يغامر بالسباحة بعد خروج المادونّا يعرّض حياته -حسب المعتقد- للخطر، لأن المادونّا تعلن بخروجها انتهاء حمايتها للسابحين. قالت إحدى المبحوثات : «المادونّا خارجة من ذمّتهم» (إنها بريئة منهم).

وفي موكب خروجها، يقع التضرّع للمادونّا وتقديم النذور لها. وقد أكّد المبحوثون أنّها «تقضي الحوايج» مثل الأولياء المسلمين. وعند قضاء الحاجة، تُكَافَأ بالزهور والشموع التي تبعث مع إيطاليّ أو فرنسي إلى الكنيسة.

وبذلك خلطت الأقلية[٤٤] المسلمة بحلق الواد معتقداتها الأصلية بمعتقدات إيطاليي المنطقة. ولم يتقلّص ذلك، ثم ينقرض، إلا عندما هاجرت الأكثرية الإيطالية بعد الاستقلال.

٢) صبغة المنفعية للبحر في المخيال الجمعي :

أ/❖ البحر شفاء :

- إنّه شفاء للأمراض التنفسية والصدرية والجلدية، حسب اعتقادهم. ويحملون أطفالهم المختونين إلى البحر؛ لاعتقادهم في أن ماءه يعالج جرحهم.

- يعتقدون أنّ دفن الجسم في رمال الشطّ الحارّة مفيد لأمراض العظام والمفاصل.

- أما نفسانيا، فالبحر يشكّل فضاء راحة يعتقدون أنّه يحقق بعض التوازن النفسي والشعور بالهدوء والامتداد. لذلك يعمد الكثيرون لاعتبار البحر مكانا «لتفريغ القلب» أي التداعي الحر. ويرى بعضهم أنّه قوّة خارقة تمنح الشعور بالتعويض. كما يمكن على الشط ممارسة عدّة أنشطة ترفيهيّة. كتب نور الدين الجيلاني متذكّرا عام ١٩٦٧: «تستيقظ المدينة فتبدأ الاستحمامات الأولى، ويعيد هوّاة الصيد بالخيط كشف الصنّارات. ويقضّي الأطفال الذين يمنحون العطلة

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 315

١/ من بداية الستينات إلى نهاية السبعينات: خليط الشط الغربي والرواسب الأصيلة:

١) صبغة القدسية في المخيال الجمعي:

نجدها تتجسّم في:

أ/❖ الاعتقاد في «سيدي البحري» و«رْجَال البَحـر»: يعتبرونهم من أولياء الله الحالّين بالبحر. وليلة الخميس يشعلون لهم الشموع أو يجددون «الوَعْدَة» أو الوفاء بها عندما تقضى حاجة الواعد؛ وعادة ما تتمثّل في فاكهة أو زبيب أو حلوى أو حنّاء أو رمي ديك مذبوح في ماء البحر.

– وهناك ورد يومي يقال عند الذهاب «للبَحر» وهو التسبيح وقراءة سورة الإخلاص ١١ مرّة والقول: «صباح الخير يا رجال البحر! يا رجال الدّالة! يا رجال النساء والرجّالة! يا سيدي نصرة أنقذني وقت الغصرة!. ويعتقدون في بركتهم ويخافون إيذاءهم. إحدى المستجوبات قالت في قالب دعاء: «ربّي ينفعنا ببركتهم ويبعد علينا شوكتهم».

ب/❖ الاعتقاد في قدسية ماء البحر: يعتقدون أنّ رشّه في المنزل وعلى الفراش وعلى العتبة يطرد الأرواح الشريرة ويبطل مفعول السحر. وهو كذلك مجلبة للرزق يطرد الكساد من الدكاكين.

ج/❖ الاعتقاد في حكمة السباحة في «أوسو» : قالت إحدى المبحوثات أنّهنّ يدعين: «أوسو نحيلي إلي نحسم». وأضافت أنّه يجب العوم سبع «عومات» متتاليات وفي ذلك حكمة إذ إنّ هذه «السبعة عومات» تخرج المرض من كل الجسم؛ لأن في أوسو «تكون العظام محلولة». وقد اتفق على ذلك كل المبحوثين.

د/❖ الاعتقاد في خروج «المادونّا» (في ١٥ أغسطس من كل حوْل):

وهو موعد دأب عليه الإيطاليون والفرنسيون (النصارى) إذ يُخرجون صنم السيدة مريم (سانتا مريا) من كنيسة حلق الوادي بحومة سيسيليا الإيطالية.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 316

كما كان يكرى اللباس السباحي الرجالي («المَيُّو»[٥١])، و«الأدواش» (= المشنّات) ويكرى أيضا مكان حراسة الأدباش و«البرارك»[٥٢]. كما كان يظهر السقّاؤون يبيعون الماء في القلال، وكان «الحلاّب» من الماء في الستينات والسبعينات بخمسة مليمات. وكانت تباع «الحِلْبَة» مثلّجةً وكذلك «الأقمي» (وهما مشروبان تونسيّان) والمشروبات الغازية التي تكون قواريرها في السطل. ويظهر باعة «مَشْمُومْ الفِلْ». وعدد كبير من هؤلاء الباعة منحدرون من قبيلة المْثَالِيثْ (شمال جهة صفاقس)... كما تظهر المَشْرَبَات هنا وهناك...

كتب نور الدين الجيلاني عن عام ١٩٦٧ : «واصل الشط في الامتلاء أكثر. والباعة المتجوّلون لدوّار الشمس والفول السوداني واللوز المملّح، بجيوبهم الممتلئة جيّدا، يشقّون المواضع دون تعب. أمّا باعة المثلّجات فيحملون المَثْلَجَاتْ ذات الألوان المبرقشة بالحمّالات ويعلنون : «فْرِيقُولُو، فْرِيقولو... إفريقولو جيّد التثليج، إفريقولو...» وصبيان ذوو أجساد ضعيفة ومسمّرة بالشمس يقترحون على العائمين قسطلات بحر: «توتياء بحر، توتياء بحر... إنّها طريّة... إنّها صحّيّة (...)»..[٥٣].

٣) تمايز الفعل الاصطيافي:

أ/ علاقة الأهليين المستقرين بـ«البرّاني الخلايعي» (= الدخيل المصطاف):

هي علاقة تواصل وقطيعة، تحددها معايير وتمثلات اجتماعية، وأفكار مسبقة، ومواقف معينة.

فلفظة «برّاني» لا تعتمد للدلالة على الأجنبي، الغريب عن «أولاد المنطقة» أو «أولاد البلاد» أو «أولاد البونْ لِيُو»[٥٤]، بل هي لفظة مضمّخة بمرجعية دونية تدل على «النازح» «القعر» (المتقعّر) تطلق على الذين يفدون على شط الكْرَمْ وحلق الواد من الأحياء الشعبية: (المَلاَّسِينْ، السَّيْدَة...) وكذلك من أبناء الكرم الغربي.

لقد أفادنا مبحوثونا في الكرم (الشرقي) أنّها كانت منطقة قاحلة إلا من نباتات شوكية وأشجار «الكرموس» (التين)، ويرون أنّ تسمية الكرم جاءت من هنا، حين

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 317

الكبيرة أوقاتا ممتعة على ضفّة البحر، بحثا عن الأخطبوط والحبارى والسرطان...»؛ صيحات وضحكات وكلمات مبهمة يطلقها المستحمّون الذين يتناقشون أو يتساءلون بالعربية والعبريّة والفرنسية[٤٥] (...) «موجات صغيرة تدور على الضفاف المكتظّة بالناس، وترقص على إيقاع أهوية الموسيقى العربية والفرنسية المتفجّرة في كلّ مكان»[٤٦]. كما نلاحظ بعض المطالعين في كتب جيب وجرائد خاصة في الصباح.

ب/ البحر فضاء للأعمال اليومية في المواسم:

❖ في عيد الأضحى: عقب هذا العيد تلجأ مجموعات كبيرة من النساء إلى البحر لغسل جلود الخرفان أو غسل الصوف المنتوف ونفشه بالعصا.

❖ في عاشوراء: كان البحر فضاء لإحياء هذه الذكرى إذ يقع إشعال الحطب والقفز عليه، وتلك النار تسمّى «اللُّهْلِيبَة». كما توزّع الفواكه على الأطفال، إضافة إلى نشاطات أخرى تحيى هذا الموسم.

ت/ البحر فضاء لإحياء التجارة الصغيرة :

كان «الشط» فضاء لجملة من النشاطات تبثّ فيه حيوية في فصل الصيف. ولكن انقرض أكثرها. فقد كنّا نجد دكاكين «فطايريّة» يعدّون الوجبات التقليدية الخفيفة: «الفطاير» و«البمْبَلُوني» و«الفريكاسيه»[٤٧]. كما تباع الفواكه الجافة (دَوَّار الشمس...)، و«الكَكِي» وحلوى «الكَرَمَال» ومثلج «الفريقولو»[٤٨] وأنواع العصير. وجلّ الباعة منحدرون من غمراسن بالجنوب التونسي.» (...) تجّار الفواكه المتجولون يسترجعون جولاتهم، مغنّين حلاوة التين وطراوة الزعرور الجرماني«؛»... شيخ نحيل وجاف يعوم داخل قَنْدُورة[٤٩] بهت لونها بتطاول الزمن. كان ميزان روماني بإحدى يديه، وقفّة سَوْحَر بأخرى، وكان يغنّي على العناب والزعرور: «مِسْكِي يَا عَنَّابْ... زَعْرُورْ، زعرور... خَمْرِي العَنَّابْ... زعرور... إِيجَا مِنَّا، وْذُوقْ البِنَّة... زعرور»(...)[٥٠]

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 318

كانت الشرقي يوصله، وإذا كان الغربي رفض ذلك الكثير منهم؛ وهناك من يتذمّر ويقول: «نْقَرّبِكْ وْمَا نُدْخُلْش»، وخاصة بعد المغرب.

والسلوك السباحي «للبرّاني» غير مرغوب فيه لدى الأصلانيّين. ذلك أنهم يكادون يجمعون على تمثله جاهلا بفنون السباحة «فهو يكتفي بالطفو فوق الماء على الظهر أو الوجه أو يبقى في الماء كالبطّ ويقفز كالقارورة، أو يجلس على حافة الشط ويصبّ الماء على رأسه«.» فعند «البرّاني» لا يمكن أن نتحدّث عن سباحة بل عن عملية «تبريد لحم»، وكثيرا ما يسبحون بثيابهم». ويضيف أحد المبحوثين مستهزئا: «مشتاقين للبحر. مساكن! في الشتا مغروقين، وفي الصيف محروقين!».

ينزل «جماعة تونس» و «أولاد الكرم الغربي» إلى البحر عادة في أيام العطل ونهاية الأسبوع. لذلك لا ينزل «أولاد الكرم وحلق الواد» البحر تفاديا في تلك الفترة للاختلاط بهم وتفاديا لسلوكهم السباحي «المضحك» وللخيام التي يعدونها «بالسفاسر» و«المالية» و«الملاحف»،[٥٥] وتفاديا لرؤية الكسكسي والبطيخ الأحمر والأصفر والمآكل الدسمة التي يجلبونها معهم فيلوّثون الشط».

فالقطيعة واضحة بين الأصلانيّ و«البرّاني». أما لفظة «خلايعي» فهي تسمية تطلق على المصطافين الذين يفدون على شاطئ الكرم من «قلب العاصمة» (باب سويقة والقصبة وباب الخضراء وباب الجديد...) أو حمام الأنف والذين يكترون منازل «للخلاعة»، وقد يكونون من الأعيان يسكنون تونس شتاء ويصطافون بالكرم في منازلهم صيفا تفاديا للرطوبة. وعادة ما تكون العلاقة بهم علاقة تواصل وتفاعل قد تمتدّ لتكون علاقة متواصلة لا موسمية، فسلوكهم السباحي مقبول لديهم، وكذلك تصرفهم على الشط «فلهم اهتمام حتى بمتممات السباحة».

ولفظة «أولاد البلاد»: تطلق على «أولاد الكرم» الأصليين فنجد فيهم الأهليين/ الأعيان إضافة إلى الأجانب من إيطاليين وفرنسيين ويهود. ويرى المبحوثون أنّ الأجانب كانوا «يحفّلون الكرم وحلق الواد» وأنهم كانوا متعايشين معهم، فيساعدون

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 318

استقرّ بها بعض الأعيان في القرن التاسع عشر. وأنّ منطقتهم هي «الكرم» وحدها دون إضافة نعت جغرافي، فالكرم الغربي كرم غير حقيقي وملحق، غير معترف به لديهم.

فضمن صراع الرئيس الحبيب بورقيبة مع معارضيه اليوسفيّين[٥٥] أواسط الخمسينات، كلّف عضده عُمَرْ شَاشِيَّة بتوطين عدد من العُمِيرِيَّة (من سكان أرياف العميرات ذات الأصل الهلالي بجهة المكنين بالساحل التونسي، منطقته ومجاله العصبي) في غرب الكرم الأصلية، ليستخدمهم في ضرب معارضيه في شبه حرب أهلية، الذين بعضهم من أهل الساحل الحضر أنفسهم؛ خاصة وأنّه يعلم أنّ ريفيّي الساحل يحملون موجدة على حضره لإقصائهم لهم تاريخيّا في أعقاب الغزوة الهلاليّة. ولكنّ الموطَّنين تكاثروا وجلبوا معهم الكثير من أقربائهم زيادة على مساكنة بعض الفراشيش (من جهة الوسط الغربي) لهم. وقد بقي الموطّنون دون «نمط حياة مُوَلّد للمرور أو للانتقال لنمط حياة «حضري».[٥٦] فقد بقوا خارج الاندماج بالمدينة المهمّشة لهم.

لقد حافظ النازحون على عاداتهم وحاولوا التأقلم مع أبناء الكرم(الشرقي)، لكنّ التّنافر لازال قائما إلى اليوم، حتى أن البلدية دعّمت هذا التوجه فقسّمت الكرم (إداريا) إلى شرقي وآخر غربي، لكليهما دار ثقافة وبلدية ومكتبة عمومية ومركز أمن. وظهرت عدّة تسميات شفويّة تكرّس هذه التفرقة: ٥ ديسمبر/عميرة/ورا البلايك (ما وراء علامات الطريق)/ورا لنقار (ما وراء محطة القطار). فالحيّ سمّته الإدارة ٥ ديسمبر، على حين ينعته الشرقيون بنعوت إقصائية، فهم وراء علامات المرور ووراء السكّة التي تفصل بين الفضاءين.

هذه النظرة الدونية جعلت من الكرم الغربي إحالة على كلّ ما هو مشين (خصومات/تسيّب/انحراف)؛ حتى أنّ بعض سائقي التاكسي إذا سألوا الحريف عن وجهته وقال: «إنها الكرم»، يسألونه على الفور : «الشرقي (أم) الغربي؟». فإذا

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 320

أمّا الفتيان فيبدأ نشاطهم السباحي مع دخول فصل الصيف أي من شهر يونيو إلى أغسطس، وعادة ما يتوقّف بخروج المادونا إذ يمنعهم أولياؤهم. وينزلون طيلة أيام الأسبوع عدا نهايته (الويكاند) وأيام العطل؛ تفاديا للاختلاط مع «جماعة تونس» و«أولاد الكرم الغربي».

أمّا الفتيات فينزلن البحر من العاشرة صباحا حتى الثانية عشرة أو بعدها بسويعات، ويكنّ مرافقات بالأمهات والأخوات وزمرة من الصديقات وبنات الجيران. وقد يرتدين فستانا أو «كاش ميّمو»(٥٦) لباسا خارجيّا، ومن تحته «الكسوة»، وهو لباس محتشم. فيدخلن بالفستان، وفي عمق البحر يكلّفن أحد الأطفال أو إحدى الصديقات بإخراج الفستان لتسبح في زيّها بارتياح. وعند خروجهنّ من الماء يرتدين الفستان أو يتدثّرن بفوطة خاصة.

والنشاط السباحي للفتيان لا يعرف قيودا أو رقابة من أوليائهم فهم في البحر من الصباح إلى المساء، ينزلون دون رقيب، يرتدون تبّاناً من الجينز أو زياً خاصّا. وعموما لا يخاف الشباب من الدخول إلى العمق، وهم يعرفون فنّ الغطس والسباحة على الصدر وعلى الظهر (سباحة حرّة) على الطريقة الغربية الحديثة. وما يلاحظ أن حمام الشمس كان يتم لديهم بالتعرض للشمس مع غياب الانبطاح أو وضعية الامتداد على الرمال، ومع استعمال مرهم مصنوع في البيت مكوّن من زيت وعصير ليمون. ونلاحظ غياب الاهتمام بمتممات السباحة أو نقصه.

٤) الأنشطة الممارسة في فضاء البحر :

إنّ السباحة بوصفها نشاطا أساسيا يشمل الجميع من أطفال وشبّان ومسنّين.

وأمّا الصيد الذي يمارسه الذكور عادة فيتم بوسائل تقليدية، سواءا لصيد الوزف أو الأخطبوط، أو لجمع الزواحف البحرية والرخويّات. وأمّا ممارسة «الفولي بول» (الكرة الطائرة) التي انتشرت بواسطة المعاهد الثانوية خاصة، فتكون مختلطة أو يمارسها كل جنس على حدة.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 321

اليهود مثلا على إتمام طقوسهم الدينية «لِيلِة الشبَّات» أي ليلة السبت إذ يمتنعون أثناءها عن لمس النار فيشعلون لهم المواقد ويفتحون لهم النور الكهربائي... إنّهم يمدحون السلوك السباحي للأجانب ويصفونه بالاعتناء الممتاز بالسباحة وبمتمماتها من حمام شمس وتركيز مضادات شمس، واتخاذ لباس ذكوري و إناثي خاص بالعوم.

وقد أكّدوا لي أنّ الأهليين المستقرّين لم يلبسوا ما هو غير محتشم من لباس «الروامة» (الأجانب الأوروبيون)، لكنهم يضيفون أنّ بعض بنات الأعيان منهم لبسن «الميو» و«البيكيني» والنظارات الشمسية وقمن بـ«بُرنُزَاج» (تسمير) ودهنّ أجسامهنّ بعقاقير مستوردة للغرض وفّرها أولياؤهنّ في كثير من الأحيان.

ب/ السلوك السباحي للمستقرين الأهليين :

لقد تبيّنا أنّ السلوك السباحي يخضع لإشراط عموديّ، (يحدده موضع الفرد في الطبقات الاجتماعية وكذلك يحدّده المنحدر الجهوي)، كما يخضع لإشراط أفقيّ يحدّده عاملا السنّ والجنس.

فلدى كبار السنّ تكون السباحة عادة في الصباح الباكر (حدود الخامسة أو السادسة صباحا) و«لأوسو» وقع كبير في تحديد السلوك السباحي إذ يتكثّف نشاطهم السباحي (غاية علاجية) ويتوقف هذا النشاط بمجرد خروج المادونا إذ لهم اعتقاد كبير في تأثيرها.

ولباس السباحة لدى كبار السن لباس محتشم. فالمرأة تحمل فستانا مع غطاء رأس (مَنْدِيلَة). أمّا الرجل فيتّخذ تبّانا حتى الركبة أو سروالا تقليديّا (سروال عربي).

وممارستهم لفنون السباحة محدودة لا تتعدّى النوم على الظهر، والطفو فوق الماء مع تحريك الرجلين إلى الأمام أو الخلف، والغطس مع حبس التنفّس عادة، والسباحة على «الحاشية» أو بعدها بقليل إذ لديهم هاجس الخوف من الدخول للعمق.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 322

القديمة، أو ربط علاقات جديدة تتواصل حتى في فصل الشتاء. من مظاهر هذه العلاقة السهرات العائلية على الشط وتناول فطور الصباح معا.

ومنذ أوائل الثمانينات حتى نهايتها، كان الشط فضاء للحوار الديني أو السياسي سواء بين العائلات أو بين المصطافين عموما، نظراً لتأثّره بالصراع المِلّي (= الإيديولوجي) والسياسي السائد في تلك الفترة.

II- في التسعينات من القرن العشرين :

إذا أردنا البحث في الثابت والمتحوّل في السلوك الشطّي الاصطيافي بالكرم وحلق الواد سنتبيّن :

١) أنّ هناك محافظة على ثنائية : القدسية/المنفعيّة فإلى اليوم مازال الاعتقاد في «رجال البحر» وفي قدسية مائه وفي الحكمة من السباحة في «أوسّو». لكنَّ هناك تقلّصا في الاعتقاد في خروج المادونا إذ يتواصل موسم السباحة إلى شهر سبتمبر. وذلك لهجرة المؤثّر (الجالية الإيطاليّة) وصيرورة الأقليّة العربيّة المسلمة أكثريّة مطلقة.

وهناك اعتقاد في البحر بوصفه شافياً من عدّة أمراض. وقد تدعّم هذا الاتجاه بالتشجيع على العلاج الطبيعي. ولازال البحر يحافظ على وظيفته النفسانيّة؛ إذ يقع اللجوء إليه لتحقيق التوازن النفسي. وكثيرا ما نجد فردا يجلس على حجارة يتأمل البحر أو تلميذا أو طالبا يطالع على حافة الشط. ويقصده الكثير من العشّاق والخطيبِين...

٢) لم يعد «الشط» فضاء تجارة بالشكل الذي كان عليه قبل. فلا نجد دكاكين قارة في الشط بل مشربات موسمية، متنقّلة، مع باعة الفواكه الجافة المتنقلين. وقد انقرضت نشاطات ككراء زي السباحة...

٣) طبيعة العلاقة مع «البرّاني» بقيت هي، وصورته المشوّهة هي نفسها، وكذلك علاقة الكرم (الشرقي) بالغربي.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 323

وأمّا التعبّد وخاصة التسبيح وصلاة الضحى، وكذلك التقرّب والتضرّع لـ «رجال البحر» والوفاء «بالوعدة»، فهو أمر يشمل المسنّين خاصّة، إلاّ التسبيح لدى عدد قليل من الشباب. ويكون الترفيه والسهرات العائلية مع شرب الشاي وطبخه على الكانون وفوقه شيء من اللوز الأخضر. وعموما، وعلى ضوء ما تقدّم، يمكن أن نضبط روزنامة صيفية للأهليّين المستقرين :

الصباح (٥ صباحاً => ١٠ صباحاً)	منتصف النهار (وبعده)	المساء والسهرة
تلاوة ورد «رجال البحر» والتسبيح وصلاتا الصبح والضحى ❖ تناول فطور الصباح («فْطَايِرْ بِالْكَرْمُوسْ»+ قهوة + «بَرْيُوش»[٥٧]) مع الجيران والأحباب. ❖ سباحة المسنين والفتيات.	❖ سباحة ❖ ممارسة أنشطة أخرى (فولي بُول/ صيد) ❖ ركوب الخيل والجمل بمقابل (٢٠ مي -> ٢٥٠ مي)	❖ سهرات عائلية ❖ ترفيه ❖ ركوب الخيل والجمل

٥) طبيعة العلاقات القائمة :

أ/ بين الجنسين : تسود فكرة حرمة «بنت الحومة»، فابن الحومة يتكفل بحمايتها من «البرّاني» وحتى من «الخلايعي». فالقضيّة هي شرف الحومة اعتمادا على عصبيّة الأحياء. لكن هذا لا يمنع من وجود اختلاط بين الجنسين ومن ربط علاقات، مع خضوع لشروط سرية إذ تكون بعيدة عن أعين الرقباء وخاصة منهم حماة الإناث من إخوة ذكور وأولاد حومة وجيران. ويتمّ التعارف بوسائل محتشمة من نظرات وسلام وتقديم عقد من الفلّ أو «مشموم» من الياسمين...

ب/ بين العائلات: نلاحظ علاقة تفاعل وانسجام سواء بين الجيران أو مع «الخلايعية القدم» أو «القدم/الجدد»، إذ يكون الصيف فرصة لإحياء العلاقات

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 324

للحماية المدنية وأعوان الشرطة.

٧) نلاحظ أن العلاقة بين الجنسين أصبحت مرنة إلى حدّ كبير، فهناك بعض الجرأة في ربط العلاقات والتواصل العلني، كما أصبح زيّ العوم مكشوفا أكثر فأكثر.

استنتاجات:

هوام حلق الواد : صعود وانهيار :

١) يلاحظ لوبروتون أن ثقافة الجسد الغربية المعاصرة ثقافة النظرة والتلصصية أكثر منها ثقافة سمع أو شم[٥٩]؛ لتصنع جسدا بارزا/مَخْفِيا في الآن نفسه إذ تنزع إلى جعله عموميّا-غُفْلِيّا، ومن ثمّة يمّحي ويثقّف، ليكون محرّرا تجزيئيا ومقطوعا عن الحياة اليومية.

وإن «حيلة من حيل الحداثة أن تسعى إلى تمرير ما هو مديحٌ للجسد الشاب، السليم، الفارع، والصحي، على أساس أنه تحرير للأجساد»[٦٠]، ولكن النموذج الجسدي الذي تفرضه مصادرُ التعبئة الثقافية نادرا ما يجد مصاديقه العملية. ولذلك يخلص لوبروتون إلى أن التحرر الجسدي » لن يكون فعليا إلا عندما يختفي همّ الجسد».

٢) إن الجسد محلّ صراعات ثقافيّة، وتأطيره البحري كذلك. وفي هذا السياق كانت تحولات ثقافة العَوْم.

وقد تبيّن لنا أن فضاء الجسد/البحر يمكنه أن يكشف خصائصنا الثقافيّة الكلية بالمجتمع الشامل، وتناقضاتنا الاجتماعية والثقافية، بل لعل التحديث الثقافي بتونس بدأ بشط حلق الواد، مؤديا إلى نسيج ثقافي غير متجانس».

٣) لم تعد الصُّوّة الفيزيائية (المرجعية الفضائية) بشاطئ حلق الواد هي مقام الولي (سِيدِي نَصْرَة، سِيدِي الشرِيفْ)، بل أصبحت هي الكازينو. فظهرت

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 325

٤) أصبح لكثير من الناس وعي بفنّ السباحة الغربي، ووعي بالشط بوصفه فضاء تعارف، وترفيه، وإبراز للأناقة والمفاتن، وحرص على إيجاد «الإكسسوارات» واهتمام بالسلوك السباحي وتأطيره، باعتماد مراهم ومواد تجميل خاصة، لدى الكثير من الذكور والإناث.

٥) نلاحظ تركّز رياضات غربيّة المنشأ انطلقت مع الجالية الأجنبيّة وانتشرت بواسطة مادة الرياضة بالمدارس الابتدائية والثانويّة بعد الاستقلال، كـ «الفوت بول» و«الفولي بول» والصحن الطائر و«البيتش» والألواح الشراعية؛ في غياب تام للرياضات التونسية. يتذكّر نور الدين الجيلاني عام ١٩٦٧: «ناصر هو بعدُ بالشطّ منذ ساعتين طويلتين، منتظرا قدوم جوال، يتابع (...) بصحبة جمال والتوءم اليهودي الصغير (...) مباراة في الفولي بول من نوع خاص جدّا. إنّها مباراة دون حكم ودون صفّارة، ودون شبكة ولا رهان، حيث الميدان ليس إلاّ فضاء ضيّقا على حافة البحر. فتيات صغيرات، وأطفال وعجائز يتدافعون ويدوسون أقدام بعضهم (البعض) حول «الميدان» لمشاهدة اللاعبين الأفاضل لفريق حلق الواد، عن قرب، وهم يقفزون، ويثبون، وينقضّون، ويدورون محوريّا، ويضربون ساحقا، ويتمرّغون... الصغير روبار قز»، مغرم كبير بالفولي بول يصفّق لكلّ تمريرة أو ضربة ساحقة دقيقة ؛ وبفخر عارف، يكبّ على أذن ناصر ليصدقه : «أعرف كل لاعبي نجم حلق الواد التي هي من أفضل فرق البلاد... اللاعبون مسلمون ويهود... وأعرف بعد الإخوة الثلاثة سميوني ألبار وصوفار وريتشارد... وهؤلاء اللاعبون الثلاثة على اليمين هم جلبار بالعايش، وسيدني للّوش، وماكس فيتوسي... والذي يحمل كَسْكَاتا[٥٨] مقلوبة وصدرة حمراء هو عز الدين المدّب... وعلى يساره بيارّو بكّارة... أرأيت إنني أعرف كلّ الفوليبوليّين الموهوبين !«...»

٦) أصبح البحر بوصفه فضاء عاما يخضع لعناية البلديات ووزارة البيئة لمراقبة التلوّث، وتنظيم عملية الاصطياف، كما تكثّف وجود أعوان الإنقاذ التابعين

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 326

ضجيج المنبّهات وأصوات أزنافور وأدمو وأنريكو ماسياس»[٦١] تتقاطع مع أصوات أم كلثوم وفيروز وتمنح لآلاف المتفسحين خليطا جميلا من الأغاني والموسيقَيَات. هذا التنافر الرائع مصحوب بخليط من الروائح تنبعث هي أيضا من كل مكان...»؛ إذ إنّ «صيف حلق الواد يوحّدهم جميعا» مسلمين ويهودا ومسيحيين[٦٢]، ضمن وحدة بشرائط روزفلتية - «شرق أوسطية» خاصة ...

ولكن فجأة تكون الصدمة الثانية التي تدمّر هوام حلق الواد. فهذا نور الدين الجيلاني في «شهادته المعيشة» عن عام ١٩٦٧ يروي أنّ دافيد اليهودي ابن الحاخام وأخا جوال يستفزّ صالح بائع الثمار. لقد سأل دافيد صالح عن إمكانيّة معرفته لنجمة داود، فلما أجابه بالنفي قال: «سينتهي العرب إلى معرفتها والاعتراف بها... هذه النجمة. حتى هذا المغرور الرئيس ناصر». فلما تشبّث صالح بجهله بالصراع الدائر أضاف دافيد : «وهؤلاء العرب... قارورة مبيد حشرات وهوب ! سيتلاشون كلّهم». هنالك قال صالح الأمّي: «إذن هنالك، لن أبيع الثمار أبدا... سأذهب مباشرة لقطع لسانك العفن». وبدأ الشجار العنيف بين الرجلين تحت أنظار الجميع[٦٣].

لقد انهار هوام حلق الواد الحداثي بانشقاق أوّل طائفة حداثيّة بالبلاد (الطائفة اليهودية). وهيّأت ظروف صدمة عام ١٩٦٧ الضاحية لتحقيقٍ رمزيّ لطلب ظاهرة «العم محمود» التي تنتشر بالمنطقة في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، على الرغم مما في ذلك التحقيق من محتوى مأزقي وآفاق إحباطية مسدودة.

لقد انهار هوام حلق الواد الحداثي «وغزلانها» الأطرشية الخاضعة «للصياد» الغربي ثقافيّا[٦٤].

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 327

محطة القطار المدعوّة: محطة حلق الواد-كازينو، ومن ثمّة إفراز ضاحية تكوّنت حول هذا الكازينو، وما يتبع ذلك من فاعلين جدد كالفنادق والحانات والمواخير القانونية وغير القانونية...

وذلك لأنّ المرجعية الرمزية لم تعد المقدّس محضا (زمن أوسّو، والأولياء، ومجاهدو البحر) إذ اختلطت بمرجعيّات رمزيّة وفدت مع الأكثرية الديمغرافية الأوروبية-الغربية بحلق الواد.

٤) كان الهوام السائد في حلق الواد وعنها إمكانية تذويب الاختلاف الثقافي من أجل ثقافة غير تعصبيّة/انحيازية. لكنْ كان الشرخ في هذا الهوام عند الخروج المفاجئ للجالية الأوروبية-الغربية منها ومن كامل البلاد في بداية الاستقلال دون مبرّرات إقصاء داخلية ممّا تسبّب في انهيار معاشيّ. ثمّ كانت صدمة التحوّل اليهودي المفاجئ أكثريّا نحو الحركة الصهيونيّة رغم التعايش السلمي عموما طيلة قرون عديدة ورغم حماية المسلمين لليهود طيلة الوجود الألماني بالبلاد أثناء الحرب الإمبريالية الثانية، ورغم الوجود اليهودي المعتبر في هيكلة حكومة الاستقلال، فلم يبرز حتى مجرّد احتجاج من حاخامات البلاد وأعيان الطائفة وجل مثقفيها على تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ولا على اضطهاداتها للسكان الأصليين. وقد بدأ انحياز اليهود التونسيين للغرب نحليّا منذ تغيير الكثير من أسمائهم العبرية والعربية إلى فرنسية منذ عقود عديدة قبل الاستقلال.

كان شارع روزفلت يبشّر في النصف الأوّل من ستينات القرن العشرين بزمن أمريكي، زمن شطّ ليّن يليّن صلابات النِّحْلات: «كان شارع روزفلت، الذي كان يدعى شارع قرطاج (إذ خطّطت الإرادة الاستعمارية لإحياء الماضي ما قبل العربي-الإسلامي) حافلاً. كانت السيارات في طابور هندي، تتقدّم ببطء شديد (...) وكانت المقاهي والمطاعم والمخازن التجارية تعيش إيقاع صيف في أوجه (...) كان

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 328

(١٥) انظر : راؤول درمون، مصدر سابق (ص٤٣).

(١٦) انظر Walter armbrust : bourgeois leisure and Egyptian media fontaisies,in: D.Eickelman and J.W.Andersons:new media in the muslim world ,the emerging puplic sphere , Indiana university press ,Bloomington , Indiana ,U.S.A,1999 (PP126,127)

(١٧) راؤول درمون، مصدر سابق (ص٤٣).

(١٨) المصدر السابق (ص ٤٢ و٤٣).

(١٩) للّا: سيدتي في لهجات بلاد المغرب، وهي كلمة أمازيغيّة (موجودة في النصّ الأصلي).

(٢٠) Jacqueline Bismuth : La Goulette, Quelle histoire cette histoire, S.E., Tunis 1999.

(٢١) المصدر السابق (ص ٤٤).

(٢٢) Bistrot

(٢٣) كتبت هَايْدِي تَمْزَالِي عن روايته: «إنها فعلا شهادة معيشة» (ص١٣٦ من الكتاب). و هي يهودية كانت من سكان المنطقة .

(٢٤) La Jetée (أي : المَكْسر)

(٢٥) نور الدين الجيلاني : La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 16-17)

(٢٦) المصدر السابق (ص ٤٨).

(٢٧) المصدر السابق (ص ٤٨ أيضا).

(٢٨) المصدر السابق (ص ٤٤).

(٢٩) نور الدين الجيلاني La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 6)

(٣٠) "Dopo Lavoro"

(٣١) انظر : راؤول درمون، مصدر سابق (ص٤١).

(٣٢) المصدر السابق (ص٤١ أيضا).

(٣٣) التسمية كانت فرنسية اللغة : Chez la mère Henna (=عند الأم حنَّة).

(٣٤) المصدر السابق (ص ٤٢).

(٣٥) المصدر السابق (ص ٤٢ أيضا).

(٣٦) Rex (المصدر السابق، ص١٤)

(٣٧) انظر تحليل هذا الخطاب في مقال: W. Armbrust (p.106)

(٣٧) نور الدين الجيلاني : La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 7,8 et 10)

(٣٨) هو لاقط الصوت.

(٣٩) آلة لإدارة الأسطوانات وإسماع ما يسجّل فيها.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 329

الحواشي:

(١) انظر دافيد لوبروتون : أنثربولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣ (ص٥).

(٢) انظر لُوِيجي سارّة :

A propos de la mer et la fête d'Awusu chez une population berbère de la méditerranée, in: l'homme méditerranéen et la mer, éd. Salammbo, Tunis 1985. (P. 53)

(٣) انظر: عادل بالكحلة ورمضان بن ريّانة: طُبُلْبَة: التقليدية والحداثة في المجتمع العربي، الجزء ٣، د.ن.، تونس ٢٠٠٣.

وانظر: عادل بالكحلة: في سيرورة الفعل السباحي التونسي، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، شباط/آذار ١٩٩٩.

(٤) أوروبا قارّتان على الأقل. فالغربية منها هي المقصودة بحديثنا هنا. ومن عدم الدقة إطلاق كلمة «أوروبا» دون تحديد جغرافي، على الأقل.

(٥) انظر: منير العكش: أمريكا والإبادات الجماعية؛ رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٢ (ص١٢٣).

(٦) انظرعمل رضا بوكراع غير المنشور ضمن ملتقى: المتوسط والمتوسطيون بتنظيم فريق البحوث حول المتوسط :

Naissance de la plage dans la méditérranée arabo-islamique ; analyse à partir du cas de la baie de Hanimamet, 1997.

(٧) Kaufman : Corps des femmes, Regards des hommes : Sociologie des seins nus, Nathan, Paris, 1998 (P.33).

(٨) «البحر الأبيض» هو التسمية التركية-الأناضولية-العثمانية. أما «البحر المتوسط»، فهو التسمية الأوروبية-الغربية. ولكنّ البكري سبق الأوروبيين الغربيين إلى هذه التسمية.

(٩) "Raquette"' كلمة من أصل عربي «راحة». انظر قاموس لاروس، باريس، ١٩٤٨.

(١٠) انظر : كوفمان، م. س (ص٣٤).

(١١) انظر : Raoul Darmon: La Goulette et les Goulettois (Notules), Société tunisienne de diffusion, Tunis, 1968 (P. 8)

(١٢) انظر سيرة ابن عربي الذاتية في الجزء الثاني من الفتوحات المكية، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢

(١٣) الاستعمال السائد هو نقل عن الفرنسية : T.G.M، أي تونس وحلق الواد والمَرْسى.

(١٤) نور الدين الجيلاني: La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 5)

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 330

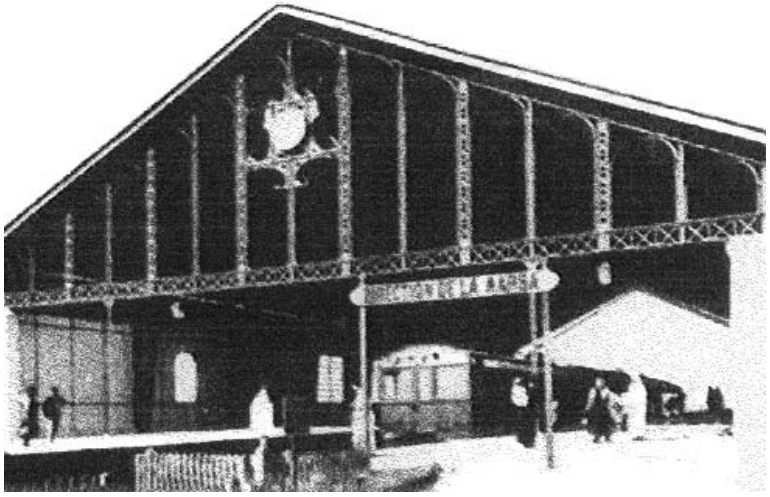

حلق الواد في بداية القرن العشرين: محطة القطار الوحيدة التي كانت تقريباً مغطاة كلها. نلاحظ شكل المثلث إحالة إلى ديانة التثليث، وشكل الصليب البازيليكي، وفي ذلك دلالة على إرادة التغيير النصراني – الإمبريالي لنحلة الضاحية الشمالية الشرقية.

بطاقة بريدية من عام ١٩٢٤: كازينو حلق الواد: نلاحظ تونسيا مترفا يتحادث مع أوربي– غربي، ونلاحظ أن الكازينو أدى إلى إحداث شط ومحطة قطار وضاحية باسمه.

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:09 PM Page 331

(٤٠) لا نجد طبعا موسيقى وغناء عربيين أو تونسيين !

(٤١) نور الدين الجيلاني : La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 77)

(٤٢) المصدر السابق، ص١١٦.

(٤٣) المصدر السابق، ص٨.

(٤٤) أصبحت أقلية باستيطان الإيطاليين هناك منذ أواسط القرن التاسع عشر ليكوّنوا حومة سمّوها سيسيليا أي صقلية.

(٤٥) نسي الكاتب الإيطالية...

(٤٦) نور الدين الجيلاني La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 7, 9 et 10)

(٤٧) الكلمتان الأخيرتان إيطاليّتان-فرنسيّتان.

(٤٨) Frigolo

(٤٩) «يعوم» كناية عن الفضفاضية. و«القَنْدُورة» لباس رجالي صوفي أصيل.

(٥٠) المصدر السابق، ص٧ وص٩١ (الصيحات موجودة في النص الأصلي بلهجتها الدارجة).

(٥١) من الفرنسية :Maillot

(٥٢) مفردها برّاكة وهي الكوخ الخشبي.

(٥٣) نور الدين الجيلاني La Goulette, La déchirure, sans éditeur, Tunis, 1996 (P. 53)

(٥٤) بون ليو : Banlieue [IL] أي الضاحية.

(٥٥) أغطية خارجية نسائية في الأصل.

(٥٦) الأصل فرنسيّ : "Cache maillot" (مُخْفِي المَيُّو).

(٥٧) الكلمة فرنسيّة : Brioche

(٥٨) Casquette (طاقية بحافة، وهي غربية الأصل).

(٥٩) دافيد لوبروتون، مصدر سابق (ص١٠٠).

(٦٠) مصدر سابق (ص١٣٣).

(٦١) مغنّون يهود استقروا بأوروبا الغربية.

(٦٢) نور الدين الجيلاني، مصدر سابق، ص٩٦ و٩٧.

(٦٣) المصدر السابق، ص١٠٩.

(٦٤) إحالة إلى مقطع من مقاطع أغنية فريد الأطرش (بساط الريح) الممجدة للثقافة التلصصية/الشطية بالضاحية.

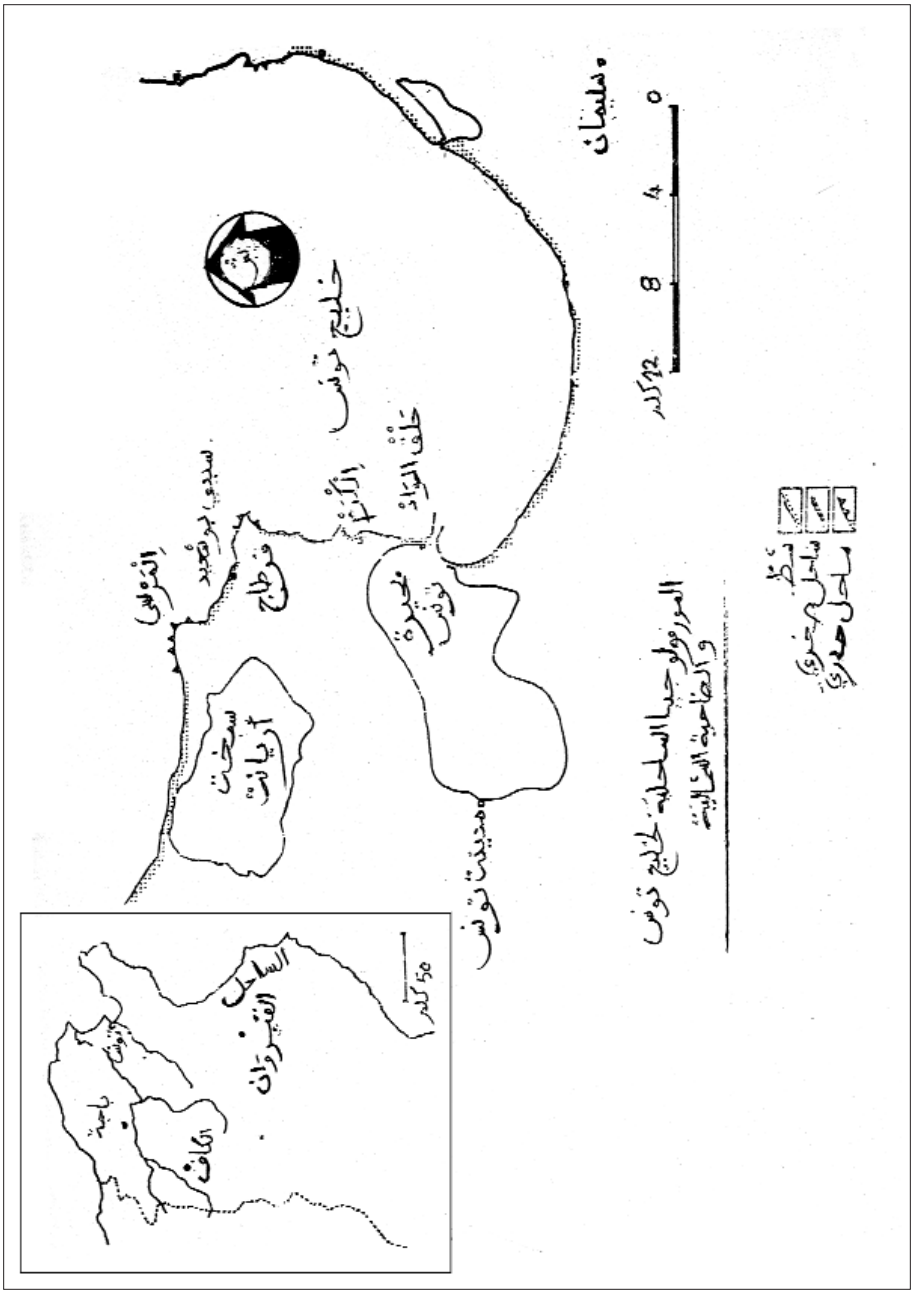

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:10 PM Page 332

Human Sciences Arabic13 4/16/12 3:10 PM Page 333